يبغي ربًّا

للأديب لبيب السعيد

كان كغيره فى القبيل يعكف على « نُهم » : يرجو رحمته ويخشى عذابه ، ويتقرب إليه زلفى ... وكان على سنّة آله يسعى إلى معبوده بالقربات يؤدى إليه بها بعض حقّه ، ويدرأ بها غضبه ، ويبتغى بها مرضاته !

كان فى هذا على آثار آبائه مقتدياً ، ولكن شيئاً من القلق كان ينمز على قلبه ، ولكن جمرات من الشك كانت تلسع ضميره ، ولكن أقباساً كانت تبدو لعقله حيناً بعد حين فتشعره أنه يخبط فى ظلمات ...

أهو الهدى يبدو له ، أم هو الضلال توسوس به نفسه ؟

وصبر أو تصبّر ...

وأتى يوماً إلى « نُهم » يصبّ له لبناً ، وإن فيه لإيماناً يمتزج بالشك ، ونوراً وظلمة يتصارعان ... على أنه قدّم قُربتَه المتواضعة خاشعاً ، ثم انصرف ...

كانت نفسه تبتغى طمأنينة وهداية ، فإما أن تعالج إيمانها بنهم ، وإما أن تطرح هذا الإيمان طرحاً ، لتؤمن إيماناً حقاً بإله لا ترتاب فى أنه حق ...

وحانت منه التفاتة عارضة لمعبوده ، فما كان أبلغ دهشه ! لقد رأى — ويا عجباً ! — كلباً يشرب اللبن المقدّس ، والمعبود مغلوب على أمره : أصم ... أبكم ... أعمى ...

وتريّث قليلاً ... فرأى الكلب وقد فرغ من اختلاس قُربة المعبود العاجز يرفع رجله فيبول عليه !!

أذلك مبلغ « نُهم » من الحول والقدرة والعزّة ؟ أهذه جلالته وذاك سلطانه :

ألا يا نُهم إنى قد بدا لى   مدى شرف يبعد منك قربا
رأيت الكلب سامك حظ عسف
فلم يمنع قفاك اليوم كلبا

لقد تمرّد فؤاده على الإيمان بالتمثال المهين ، وقد بدا له ما كان يخوض هو وقومه من ضلال ...

وسمعته أمه يسخر بإلهها وإله ذويها فهالها الأمر وأقبلت عليه غضبى تنبهه إلى فداحة جرمه وضلالة حكمه وهول زعمه ، مشفقة عليه من عذاب « نُهم » !

بيد أن إنكارها ما لبث أن استحال إقراراً ، وإخلاصها لنهم ما لبث أن عاد ازوراراً ، ذلك أنها سمعت حكاية الإله التعس ، والحق أبلج لا يستعصى على البصائر إدراكه ، ما دام القلب سليما والنية خالصة

وأنشأت تقول :

فديتك فابغنا ربًّا كريما   جواداً فى الفضائل يابن وهب
فما من سامه كلب حقير   فلم تمنع يداه لنا بربّ
فما عبد الحجارة غير غاو   ركيك العقل ليس بأهل لبّ

وظلّ النجل المشوق إلى الحق يتحرّى ما تريد الأمّ المشوقة إلى الحق ... يتحرى ربًّا كريماً جواداً فى الفضائل ...

وَصَرَمَ نُهماً ، ولبث يصلى حيث يسترجع جنانه ، وحيث توجهه القوة العظيمة التى بيدها مقاليد كل شىء ...

* * *

الكون يريد الله به الخير والرحمة ؛ والقلوب التى عذبها القلق وأضنتها الحيرة يريد الله لها السكينة والاستقرار والمعرفة ، والدجنة الغالبة على الدنيا يريدها الله على أن تنقشع ، والنور الذى أكنّ الله للمهديين من عباده آن انبثاقه ... فالإنسان الكريم الذى اصطفاه الله لهذا كله قد أرسل ...

وبلغ أبا ذرّ مبعث محمد صلى الله عليه وسلم (١) ، فخفقت الأمانى فى صدره ، وود لو صح الأمل ، وقال لأخيه : « اركب إلى هذا الوادى ، فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ، ثم ائتنى . »

(١) اخترنا من روايات إسلام أبى ذر رواية البخارى

وتلبث أبو ذرّ يرقب عودة أخيه بصبر فارغ، وعاد أخوه يقول: «رأيتُـه يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ما هو بالشعر»

لم يبلّ هــذا القول من أبي ذرّ أواما، فهمّ يتزوّد لرحلة يقوم بها هو نفسه، وحمل شنّة له فيها ماء، حتى قدم مكة بلد الرجل الذي يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً تذهب فيه العقول مذاهب ... وأتى المسجدَ يلتمس هذا الرجلَ، ولـكنه لم يكن يعرفه، وقد كره أن يسأل عنه ...

وفي اليوم الثالث لمقدمه أقبل عليه عليّ بن أبي طالب، وقد أدرك أنه غريب، فقال: «ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟» قال أبو ذر: «إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنّي فعلت» فلما أخذ موثقه، أخبره بطَلِبته

إذن لقد هدى الجدُّ الموفّق أبا ذر إلى أحد أصفياء الرسول السابقين إلى الانتهال من معينه، الراغبين في نشر دينه

ولـكن الظلم يومئذ كان للمؤمنين بالمرصاد، وكانت متابعة محمد يومئذ تكلف فاعلها ما لا صبر معه إلا أن تكون الحسنى قد سبقت له من الله هذا، وقد كان من دون لقاء الرسول أذى كثير على أن عليًّا ذلل الصعب، فبلغ الغريب غايته، وحظى بلقاء الرسول، وسمع إلى الحـكمة منه وفصل الخطاب

ووضحت الحجة لأبي ذر، واستضاء الحق أمامه كأنه النهار إذا تجلى، وعرف الرب الذي طالما حن إلى معرفته ... فأسلم مكانه ليكون من السعداء بالـكرامة قبل أن تكون كرامة، وبالهداية قبل أن تكون هداية، وليكون من المؤمنين القليل قبل أن يكون مؤمنون كثير!

وقال له الرسول رءوفاً به رحيما: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري» ولـكن أبا ذر كان من إيمانه كالنهر الطافح الفياض لا بد أن يهدر بما فيه ويتدفق على ما يلاقيه، فهو يجيب الرسول في لغة الواثق بربه، المعتز بعقيدته، المتفاني في حبها والدعوة إليها «والذي نفسي بيده لأصرخنّ بها بين ظهرانيهم»

ألا فليصرخ أبو ذرّ بها، فما أعذب وما أحلى!! وما الظلم، وما البطش، وما الناس، وما الدنيا تلقاء إيمان أقَرّ في الصدر فأضاء جنباته؟ ما الآلام توجع الضعيف، وما الإهانة تلحق الأبيّ، وما الموت نفسه يلحق الحيّ ما دام يحرز إيماناً ينيله رضوان الله وإعزازه، وينيله الآخرة التي هي الحيوان؟!

أحسبها كلمةً كان أبو ذرّ قائلها طواعيةً لعاطفة ملتهبة تنثني بعد حين هامدة؟ كلا! لقد خرج حتى أتى المسجدَ — وأهلُ المسجد يومئذ هم ما هم كراهيةً مجنونةً لمحمد وأتباعه، ورغبةً متسعّرةً في حسم شأنهم جميعاً — خرج حتى أتاهم، فصاح بها ما وسعه الصياح، صاح بالشهادة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله!

وكان ما كان مرتقباً. كان أن ضربوه حتى أضجعوه، ولم ينقذه منهم إلا العباس الذي أكبّ عليه منذراً إياهم انتقام «غفار» الضاربة في طريق تجارتهم إلى الشام

ولـكن أتحسب ثانية أن ذلك كان ليصدّ أبا ذر عن العودة إلى الجهر بشعار الإسلام الذي تشرّبه قلبه؟ أتحسب خشية العدو المتجبر دلفت إلى قلبه الكبير فثنته الهتاف بكلمة الإيمان؟ أتحسب ضعفه وكونه وقتئذ خامس خمسة هم كل مسلمي الأرض ... أتحسب ذاك ليوهن منه ويقهره على كتمان قولة الحق؟ هيهات! فلقد عاد من الغد لمثل ما كان أمس، وقد عادوا فضربوه، وثاروا إليه، لولا أن عاد العباس فأكبّ عليه ...

وقدم أبو ذرّ على أخيه فأخبره بإسلامه فأسلم؛ وانطلقا إلى أمهما وقد وجدا مُبتغاها ... وجدا (الربَّ الـكريم الجواد في الفضائل)، فلم يكنْ إلا أن تؤمن! ودخلت بعدهم «غفار» جلّها في دين الله، فكانت من كتائبه المجاهدة، وكانت أهلاً لقول الرسول الـكريم فيها: «غفار، غفر الله لهـا!»

(المنصورة) لبيب السعيد

حكم استئنافيا بحرم سيد أحمد ابراهيم البقال بروض الفرج بالقضية نمرة ٦٨١٦ بجلسة ٤ فبراير سنة ١٩٤١ خمسون قرشا لبيعه كبريتا بأزيد من التسعيرة

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)